

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

عنوان الليسانس: علم اجتماع اسم الوحدة: أساسية الرصيد: 5 المعامل: 2

المحاضرة الحادية عشر: الرابط الاجتماعي عند آلان توران

لم يكن انتماء آلان تورين Alain Touraine للسوسيولوجيا نتاجا للصدفة كما يخيل للبعض؛ فانتمائه كان من أجل المشاركة في تغيير العالم، وشرطا لقيام السوسيولوجيا كعلم ملتزم وراديكالي، نظرا لأنه كان يهدف إلى تغيير جوهري في موضوع السوسيولوجيا بشكل عام. فقد كانت أبحاثه النظرية والميدانية تسعى إلى إعادة الاعتبار لموضوع السوسيولوجيا من خلال دراسة الفاعل ككائن تاريخي مرتبط بشروط ووضعيات اجتماعية، حيث لا يتخذ الفعل معناه الحقيقي إلا في علاقته مع البنية.

واعتبر تورين أن السوسيولوجيا الكلاسيكية تصور المجتمع على أنه مجرد نسق منظم يستمد وجوده من تقدمه وتطوره المتواصل عبر عملية التنشئة الاجتماعية والتكيف الاجتماعي والضبط الاجتماعي. كما اعتبر أن مشكلة السوسيولوجيا النقدية التي تتمثل في التفاعلية الرمزية والفردانية المنهجية تكمن في تمجيد الفاعل، وتقوم بتضخيم إمكانياته الإستراتيجية، وإغفال القضايا الكبرى المرتبطة بالقوة والبناء، على الرغم من تأكيدهما على التفاعل بين الذات والمجتمع. فبعدما ظهرت لنا سوسيولوجيا النسق بدون فاعل (الوظيفية، الماركسية، البنيوية) ظهر لنا خطر الانسحاق نحو سوسيولوجيا الفاعل بدون نسق (التفاعلية الرمزية، الفردانية المنهجية)، ولهذا كان هدف تورين هو بناء سوسيولوجيا تطابق بين الفاعل والنسق.

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي د. تالي جمال

ضمن هذا الإطار، يقترح تورين إعادة تعريف السوسيولوجيا باعتبارها دراسة للفعل الاجتماعي، فعل ذات تاريخية تتحدد توجهاتها بالنظر إلى مجموع الظروف الاجتماعية. فالحقيقة الاجتماعية في شموليتها يجب أن يتم تحليلها عبر مجموعة من أنساق الأفعال. وعلى هذا النحو، قام تورين بمجهود نظري لتجاوز هذه الوضعية التي أسقطت السوسيولوجيا في ثنائية النسق والفاعل، عبر مقولة نسق الفعل، فما هو مهم، هو أن يتم استبدال تلك المسافة الفاصلة بين الفاعل والنسق بالارتباط معاً، وهذا ما تسمح به فكرة نسق الفعل عند تورين عبر التفكير في الدينامية الاجتماعية التي تميز المجتمعات الغربية، مركزاً في تحليلاته على الصراعات والتناقضات بين الطبقات الاجتماعية في امتلاك التاريخية، فدراسة المجتمع تكمن في حركيته وليس في سكانته. 1

تتمحور تحليلات توران للرابط الاجتماعي حول ست مصطلحات رئيسية وهي التاريخية ونسق الفعل التاريخي والعلاقات الطبقيّة والنسق المؤسّساتي والتنظيم الاجتماعي، والحركات الاجتماعية، وهي مصطلحات تتعلق بمستويات مختلفة من الرابط الاجتماعي في مقارنة تزامنية تصف البنية الاجتماعية وإنتاج المجتمع وليس تغيراته.

1.التاريخانية:التاريخانية كلمة من إبداع كارل فرنر سنة 1879 وقد استخدمها لتعريف فلسفة فيكو الذي أكد أن العقل البشري لا يدرك إلا ما يصنع، أي تلك

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي .د. تالي جمال

المنشآت التي تكون العالم التاريخي¹ ف كارل بوبر التاريخانية بأذها البحث عن قوانين التغيير الاجتماعي أو بصورة أكثر طموحا، عن التاريخ، وقد برزت بالخصوص في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في حقل العلوم الاجتماعية واقترنت بأسماء هيجل وكونت وماركس وميل وسبنسر².

ويمكن تعريف التاريخانية في المعنى الضيق بصفتها النظرية أو الرؤية التي تعتبر أن التغيير الاجتماعي أو التطور التاريخي يخضع لقوانين التعاقب غير المشروطة التي تعطي التاريخ وجهة أو اتجاهها"

ينطلق توران من رفض كل الفلسفات الاجتماعية التي حاولت تفسير الظواهر الاجتماعية بمبدأ غير اجتماعي، مثل الرعاية الالهية والقانون والتطور والحاجات الطبيعية وغيرها، لابعاد كل ما يسمى بالضامن الكلي (الرب). فالمجتمعات في نظره ما هي الا نتاج عملها وعلاقاتها الاجتماعية، ليس المجتمع حسب ما هو كائن بل ما يفعله لكي يكون عن طريق المعرفة التي تخلق وضعا للعلاقات بين المجتمع ومحيطه، عن طريق التراكم الذي يقتطع جزءا من الناتج المتوفر من الدائرة المؤدية للاستهلاك. الذي ينظم وفق نموذج ثقافي³.

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي .د. تالي جمال

فالتاريخانية هي قدرة المجتمع على انتاج نفسه بنفسه بإعطاء المعنى لممارساته، أي بإنتاج توجهاته، وهذا ما يفسر لماذا المجتمع ماهو كائن ولكن ما يفعله ليكون، وهي قدرة تتطلب منه بعدا عن ذاته. كما أن التاريخانية تقوم على نموذج ثقافي الذي يحدد توجهات التراكم؛ إذ على المجتمع أن يحدد نموذج معرفة يحدد طبيعة الرابط الاجتماعي بين علم الإنسان وعالم المادة.

أ. نمط المعرفة: وبخاصة الصورة عن العالم وعن الرابط الاجتماعي وعن اللااجتماعي Non-social واللغة، كلها تساهم في توجيه التصرفات الاجتماعية كما تساهم في تعريف الوضعية.بانه لا تعارض بين المجتمع والطبيعة، وهذا ما يذهب به الى الحديث عن انساق المعرفة التي تعتمد على القدرة الرمزية للجنس البشري، فالمجتمع قادر على ان يرتب نشاطاته وتصوراته، وهو بالتأكيد شرط التاريخانية المعرفة على انها ابتعاد المجتمع عن نشاطه عندما يقول:"يقوم المجتمع بالفعل على نفسه أولا لانه لا يتطابق مع ذاته، فلديه قدرة رمزية، قدرة معرفية ينظم بواسطتها علاقاته مع محيطه تبعا لهويته، والاكيد ان المجتمع البشري جزء من الطبيعة لكنه لا يدخل في نظام ما بل يغيره انطلاقا من عمله."⁴

تحتل المعرفة بوصفها قوة انتاج في أبعادها العلمية والتقنية المكانة الأولى في علاقات الإنسان بمحيطه، لكنها تبقى تابعة للنموذج الثقافي ولأشكال التراكم

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي .د. تالي جمال

فيما يخص استعمالها. فالرابط الاجتماعي يجعل من المجتمع كائنا إنسانيا يحمل معان ثقافية لانفعاله توجهه المعرفة الإنسانية، فالمجتمع الفاعل يتربط أفراده ويشكلون وحدة تكون قادرة على التغيير والتحكم فيه.

ب. مسار التراكم: يقطع جزء من الانتاج القابل للاستهلاك في اعمال يحددها النموذج الثقافي، ففي المجتمعات ضعيفة التاريخانية لا تكون الاستثمارات منتجة بصفة مباشرة مثل المعابد، ورجال الدين والقصور، وذلك كلما كان التزمك مهما كلما حول ظروف الانتاج أكثر.

ج. النموذج الثقافي: يعطي النموذج الثقافي معنى للممارسات الاجتماعية إنبودجّ ه الفعل التاريخي، الا انه ليس عبارة عن نسق قيم، أو أساس الأحكام أو تعريفا لما هو مرغوب او غير مرغوب فيه اجتماعيا. انه إدراك وتصور للإبداعية ولعلاقات نشاط المجتمع، ولقدرته على العمل على هذا النشاط. يعنقد الان توران ان النموذج الثقافي يمثل بعدا جوهريا للتاريخانية، فهو تصور لقدرة فعل المجتمع على ذاته، محددًا بذلك حقل الرابط الاجتماعي (العلاقات الاجتماعية) ونسق الفعل التاريخي.

إن الان توران يميز في معالجته للرابط الاجتماعي بين نوعين من المجتمعات، مجتمعات ضعيفة التاريخانية يدرك فيها الرابط الاجتماعي بصفة مجردة على انه نظام كلي (الإله، القانون)، بينما في مجتمعات قوية التاريخانية يكون تأثير إنتاج العمل على إنتاج الخيارات كبيرا، يكون أدراك الابداعية كبيرا.

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي .د. تالي جمال

د. التاريخانية ونزاع الطبقات: يرى الان توران ان التاريخانية تستلزم وجودا مباشرا لنزاع الطبقات الاجتماعية المتعارضة، ومعناه ان المجتمع لا ينقلب على نفسه ليتوجه او يتحول، انما الطبقات المسيرة هي التي تدير نمط المعرفة والتراكم والنموذج الثقافي، حيث انها تتماهى بالتاريخية لكنها لا تحمل معنى يخرج عن مصالحها الخاصة، فيختلط النموذج الثقافي بإيديولوجيتها الخاصة.⁵

الذات ونهاية الاجتماعي:

يحاول ألان تورين بناء أطروحته حول الذات على أنقاض نقد الخطاب التأويلي السائد، لاسيما منه الخطابان البنيوي والماركسي، اللذان وإن اختلفا في أدواتهما التحليلية والمخرجات أيضا، فهما يجتمعان في محاولة تقديم صورة لما ينبغي أن تكون عليه الحياة الجماعية والفردية على السواء.

فالخطاب البنيوي الذي ساد في الولايات المتحدة الأمريكية، والنظرية الماركسية التي هيمنت على الفكر الفرنسي، في نظر تورين، هما اللذان يؤثتان هذا الخطاب التأويلي السائد، بعد أن تراجعت الطبقة العمالية وهيمنت الإيديولوجية الليبرالية تحت إشراف الدولة.

يجزم تورين بأن الحياة ليست بهذا الجمود والموت، فالحياة تعج بالمعتقدات والأفكار والفاعلين والحركات والنزاعات والتوترات، ويستشهد تورين هنا بالتطور الذي

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي .د. تالي جمال

حصل في عالم النساء، والذي أضحى يثبت بأنهن لم يعدن مجرد ضحايا يعانين من العجز عن الفعل، وأنهم صرن في كثير من الأحيان يقطن العالم برجاله ونسائه نحو عالم جديد بقيم ومعايير وسلوكات جديدة، والأمر نفسه سجله تورين بخصوص المجتمعات والثقافات التي حاول الاستعمار إخفاءها وتدميرها وإبادتها، بل إن الظاهرة الدينية التي حكم الخطاب التأويلي السائد بكونها تتجه نحو النهاية والاضمحلال، صارت ظاهرة جدية مسموعة وتحدياً قائماً لا يمكن إنكاره. كما أصبح سؤال العيش المشترك في ظل جماعات وثقافات متباينة له راهنية خاصة.

فحسب تورين، العالم لا يحكمه الهدوء والصمت والاستسلام للقوانين التي تحدثت عنها الحتميات، وإنما هو عالم متوتر تعلو فيه أصوات كثيرة، واحتجاجات وحركات وتعبير متمرده، تثبت أنه ليس بذات الصورة التي يحاول الخطاب التأويلي السائد صياغتها.

ويستدل تورين بهذا الخصوص بالحركات الاجتماعية وأدوارها الراهنة ويقدم ذلك كدليل على أن العالم يحاول أن يخرج من الهيمنة، وأن إيديولوجية الضبط والتحكم والهيمنة لم تعد قادرة على تفسير العالم، وأن أطروحات ماركيز وفوكو والتوسير وبورديو التي تعلي من شأن هذه الهيمنة المطلقة لم تعد قادرة على تفسير هذه الانفلاتات وهذه النزوعات الحيوية التي تمثلها الحركات الاجتماعية التي أضحت

محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي .د. تالي جمال

متغلغلة بشكل عميق في المجتمع، وتعمل على تغيير قيمه وثقافته من خلال اثارها في مجموعة من القضايا الاجتماعية.

ويمارس تورين في كتابه نهاية الاجتماعي نقدا لاذعا لهذا الخطاب التأويلي السائد، ويعتبر أن الظواهر الجديدة التي برزت في المجتمع، تؤثر على نهاية الاجتماعي، وأنه لم يعد ممكنا تحت أي ذريعة حتمية التكرار للمنظور الجديد الذي صار يتشكل اعتمادا على الذات والاعتراف بها وبحقوقها، لاسيما الحقوق السياسية والاجتماعية والثقافية لكل الأفراد أينما وجدوا.⁶

في ختام القول ومن خلال المنجزات التي أنجزها ألان تورين، نلاحظ أن له حضورا قويا ومتميزا في الساحة العلمية، وخاصة فيما يخص تحليله العميق للحركات الاجتماعية، فهو يعد من أشهر منظري الثورة، ويرفض الانسياق وراء المصالح الشخصية، فهو يعبر عن نموذج المثقف العضوي، ويؤكد دائما أن دور السوسيولوجي هو رهانه على الحركات الاجتماعية ومواجهة القوى التي تسعى إلى السيطرة والهيمنة.



محاضرات في مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي .د. تالي جمال

فمن وجهة نظره، فإن مهمة السوسيولوجي هي النضال من أجل التغيير ضد النظم والمؤسسات التي تمارس الضغوطات والإكراهات على الذات الإنسانية.